بوليسية؟ وبمعنى آخر، هل كان مشغولاً برواية وهمية تزخر بالرموز والواقع يعضّه بناجذيه؟ ولماذا تخرج «الشيء الآخر» عن أعماله التي اشرنا اليها آنفاً؟ وهل حقاً كان عالم الجريمة والجنس والموت هو عالمه الاثير حينذاك؟ الاجابة، في رأيي: كلا. لقد كتب غسان «الشيء الآخر» ليعبّر بها عن الهمّ الفلسطيني، وليس لتمضية الوقت، فغسان كان مهدّداً دوماً، وليس لديه وقت فراغ. ان «الشيء الآخر» رواية واقعية من وحي المخيم، والتشرد، والضياع، وهو ما سنحاول البرهنة عليه الآن.

## «الشيء الآخر»؛ قراءة جديدة

أول ما يلفت النظر، في هذه الرواية، انها تستفيد من الشكل البوليسي، ولكنها لا تلتزم به. فهي لا تأتي بالحل، من خلال استخدام ضمير المتكلم. واذن، فان دوافع العقدة، هنا، لا تعود الى شكل من أشكال «الحكاية» المعروفة، وانما الى شكل من أشكال الاشارة الى ما دفع اليه من «خطاب» روائي لا بدّ من ان يصل المتلقّي. ومن هنا، نستطيع الوصول الى هذه الرواية من أكثر من رافد، تتدرج جميعها لتلتقي في مصبّ واحد، هو «الخطاب» الاخير.

الرافد الاول دار حول الحكاية التقليدية. وباختصار، دخل المحامي صالح في علاقة عاطفية محرّمة مع الزوجة ليلى الحايك، وفي علاقة صداقة حميمة مع زوجها سعيد الحايك. وتحوّلت هذه العلاقة الاخيرة الى نوع من العمل يتفق فيه المحامي مع الزوج، من وراء ظهر الزوجة. غير ان المحامي وجد نفسه، فجأة، متورّطاً في جريمة قتل: القتيل هو ليلى الحايك، والقاتل هو المحامي نفسه.

وظل الجاني غامضاً الى ان تحالفت كل الظروف ضد المحامي ـ المتهم. وحين ادرك هذا ان كل الادلّة ضده، وان القاضي، هو هذه القوة الخفية التي تعمل ضده، وحين عرف ان كل خيوط الجريمة محبوكة ضده، فانه لم يجد غير الصمت، الصمت هو الموقف الوحيد الذي عبّر عن رفض لما يحدث حوله. ولأنه لا يملك غير هذا الموقف، فقد تشبّث به في هذه الجريمة الغامضة التي قلبت الموازين كلها: الظلم اصبح عدلاً، والحق اصبح باطلاً، والشهود اصبحوا كاذبين. هذا هو الرافد الاول، المباشر. امّا الرافد الآخر، غير المباشر، فقد جرى خارج هذا الاطار الواضح.

### المحاور الثلاثة

ان الرافد الآخر، الحقيقي، هو الذي دار في خبايا الشعور الفردي، وصولاً الى تخوم الشعور الجماعي في مساحة فنية شاسعة، وهو تحدّد بمحاور ثلاثة: المجني عليه، فالجاني الغامض (الشيء)، وصولاً الى العلاقة بين الطرفين (القانون)، قانون هذا الكون الفاسد. لنقرأ مفردات هذه المحاور:

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| الصمت | — | المتهم | — | اللاجدوى |
| الجريمة | — | الشيء | — | الضعف |
| الظلم | — | القانون | — | العدل |

وتتحول التناقضات الى اشارات موجية على النحو التالي: الصمت / اللاجدوى؛ الجريمة / الضعف؛ الظلم / العدل.

١ ـ المتهم البريء: ان المتهم، هنا، هو ذلك الذي اتهم بجريمة لم يرتكبها. وطيلة التحقيق معه تأرجح طويلاً بين احساسين (موقفين)، الصمت واللاجدوى. الصمت لأنه عرف ان من حوله لن يصدقونه، أو يتظاهرون بذلك؛ واللاجدوى من معاودة الكلام، وهو موقف، اتفق، تمام الاتفاق،